العالم

من أسماء الله الحُسنى العالم ، فالعالم اسمٌ من أسماء الله الحُسنى يُضمّ إلى الأسْماء التِّسْعة والتِّسْعين التي وردت في حديث رسول الله ﷺ .

العالم من مادّة العِلْم ، والعِلْم إدْراك الشيء على ما هو عليه مع الدليل ؛ أكرِّر : إدْراك الشيء على ما هو عليه بالدليل . أو هو مَقولَةٌ مقْطوعٌ بِصِحَّتِها تُطابِق الواقع عليها دليل ، فَلَو لم يكن عليها دليل لكانت هذه المقولة تقْليداً ، ولو لم تُطابِق الواقع لكانت هذه المقولة جهْلاً ، ولو لم يكن مقْطوعاً بِصِحَّتِها لعُدَّت هذه المقولَةُ وهْماً أو شَكاً أو ظناً ، فالعِلْم ليس شكاً ولا ظناً ولا وهْماً ولكنَّه قطْعي ، والعِلم ما طابق الواقع وما كان عليه دليل ، وبِشَكْلٍ مُخْتَصَرٍ : إدراك الشيء على ما هو عليه بالدليل .

وإنني لا أُبالِغ إذاَ قُلت : إنَّ من أخَصِّ مايخْتَصّ به الإنسان العِلْم ، وأكثر صِفات الإنسان مُشْتَرَكةٌ بينه وبين بقِيَّة المخْلوقات ، إلا أنَّهُ يتمَيَّز بِقُوَّةٍ إدْراكِيَّة ، وكَرَّمَهُ الله بِالعِلم ، وفي أثناء الحديث عن الكرامات يُعَدّ العِلم أعظم كرامة ينالُها الإنسان من الله عز وجل ، مع أنَّ هذه الكرامة ليس فيها خرْقٌ للعادات .

وبعد ، فإنَّ الله عالم يُحِبّ كُلّ عالم ، والناس رجلان : عالِمٌ ومُتَعَلِّم ولا خير فيمن سِواهُما ، كُن عالِماً أو مُتَعَلِّماً أو مُسْتَمِعاً أو مُحِباً ولا تكُن الخامِسَة فَتَهْلِك . فالعِلم إدْراك الشيء على ما هو عليه بدليل ، لو أنَّ الناس أدْركوا الحقائق على ما هي عليها ، لما اخْتَلَفوا ولما تحاربوا ولما تخاصَموا ولما عاشوا في شقاءٍ ما بعْده شقاء .

فالقضيَّة قضيَّة عِلْم بل إن الإنسان الكافر وهو في النار يتلوَّى من الحريق يُنادي ويقول :

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك : ١٠] .

فالذي بينك وبين أهل الدنيا هو العِلم ، لِذلك إذا أرَدْت الدنيا فعَلَيْك بِالعِلْم ، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعِلم ، وإذا أردْتهما معاً فعَلَيْك بالعِلم ، والعِلْم لا يُعْطيك بعْضَهُ إلا إذا أَعْطَيْتَهُ كُلَّك ، فإذا أعْطَيْتَهُ بعضك لم يُعْطِك شيئاً ، ويَظَلُّ المرء عالِماً ما طلب العِلم ، فإذا ظنّ أنَّه قد عِلم فقد جهِل .

قال العلماء : العِلم عِلمان : إدراك ذات الشيء ، والحُكْمُ على الشيء ، تقول هذه طاوِلَة ؛ فأنت تُدْرِك ذات الطاوِلة . أو تقول : هذه الطاوِلة مُتْقَنَةٌ فأنت بهذه العبارة أطلقت حكمك عليها ، إذاً : فإما أنْ تُدْرِك حقيقة الشيء وكُنْهَ الشيء وهويّته ، وإما أنْ تحْكُم على هذا الشيء فالعِلم عِلمان : إدراك الذات ، وإدْراك الصّفات .

والعِلم عِلمان أيضاً : عِلم نظري ، وعِلم عملي ؛ عِلم تَقْتَبِسُهُ بِإلْقاء السَّمْع أو إعْمال الفِكر أو قِراءة الكِتاب أو سماع المُحاضرة . وعِلْم تسْتَنْبِطه من الحركة والعمل ، فالعلم الذي تسْتنبطه من الحركة والواقع العملي هو العِلم العملي ، والعِلم الذي تسْتقيهِ من الدروس

والكُتُب وإلْقاء المُحاضَرات هو العِلم النظري .

والعِلْم عِلمان مرة أخرى : عقْليٌّ وسَمْعي ؛ إما أنْ تصِل إليهِ بِذاتِك وعن طريق التأمّل ، وإما أنْ تُصيخ السَّمع إلى غَيْرِك عن طريق التلقي ، فإما أنْ تُفَكِّر وإما أنْ تُصْغي ، قال تعالى :

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ .

تُفكِّر ، وتتأمَّل ، وتتدبَّر ، أو تُصْغي ؛ تأْخُذُهُ جاهِزاً عن طريق السمْع وتَصْنَعُهُ أنت عن طريق العَقْل ، فَعِلْمٌ يُؤخذ عن طريق العقل ، وعِلمٌ يؤخذ عن طريق السمع ، وعِلْمٌ تتلقاهُ نظرِياً ، وعِلْمٌ تسْتَنْبِطُهُ عملِياً ، وعِلم أساسُهُ إدْراك ذات الشيء ، وعِلمٌ أساسُهُ إدْراك صِفات الشيء .

وبِالمُناسَبة أقول : هناك قِيَمٌ كثيرة يتفاضل بِها الناس ؛ فالمال قيمَةٌ تفاضُلِيّة بين البشر ، والوَسامة والذكاء والقوة والوجاهَة والنَّسَب فهذه كُلُّها قِيَمٌ تفاضُلِيّة ، ولكنَّ الله تعالى لم يَعْتَمِدْها في تنزيل الناس المنازل ،بل إنّ الله جلّ جلاله اعْتَمَدَ قيمة العِلم ، وهي التي رفع شأْنها ، قال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر : ٩] .

وقال تعالى : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [المجادلة : ١١] .

وقيل : رُتْبَةُ العِلم أعْلى الرُّتَب ، والدليل أنَّ أقْوى إنسان فيما يبْدو لك في الأرض لا يسْتطيع أنْ يتَّخِذ قراراً إلا إذا سأل الخُبراء ؛ يُؤلِّف لجنة من كِبار العلماء في موضوعٍ ما ، ويطْرح عليهم سؤالاً فَيُعْطونَهُ خِيارات فَيَخْتار من بين هذه الخيارات ، فَمَن الذي يَحْكم

العالم إذاً ؟ هم العلماء ؛ فالذي بِيَدِهِ إصْدار القرار يَحْتاج إلى خِبرة العالم .

وقد قال العلماء : « **هناك فرْقٌ بين أن تُعْلِم وأنْ تُعَلِّم** » ، فالإعْلام إلْقاء الفِكرة بِسُرعة . لكنْ علَّمْتُهُ : إلْقاء الفِكرة مع التَّكْرار ومع الإتْقان ومع التعْليم والتَّحْفيظ .

وقال بعضهم : التعليم تنْبيهُ النفوس لِتَصَوُّر المعاني ، أما التعلُّم فتنبُّهُ النفس لِتِلْك المعاني ، فالتَّنَبُّه الذاتي تعلّم ، والتنْبيه القسري تعليم ، وقد حلَّت نظريات التعلم مكان نظريات التعليم ، فالإنسان لا يتعلّم إلا إذا أراد أنْ يتعلَّم . وعُنْصر الاخْتِيار أساسي جداً في التعلّم ، لذلك بعض الجامِعات الآن تُعَلِّم الحقائق لا عن طريق التلْقين ، بل عن طريق البحث الذاتي ، والبحث العلمي ينمو في الجامِعات المتقدمة .

هذا الاسم العظيم اسم العالِم ورد في كِتاب الله عز وجل بِصِيَغٍ كثيرة ، قال تعالى :

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [الرحمن : ١-٢] .

أَيُعْقَل أنْ يُعلِّم الإنسانُ القرآن قبل أنْ يُخْلق ؟ قال بعْضهم : قُدِّم تعْليم القرآن على خلْق الإنسان تقْديماً رُتَبياً لا تقْديماً زمنِياً بِمعنى أنّ الإنسان لا معنى لِوُجوده دون منهجٍ يسير عليه . فالإنسان الشارِد الضائِع الذي لا يعْلم هو دابّةٌ مُتَفَلِّتة ، وقيمة الإنسانِ بِالعِلم . دخل على مَجْلِس عمر بن عبد العزيز وُفودُ المُهَنِّئين ، وتَقَدَّمَهُم وفْد الحِجازِيِّين ، وتقَدَّم هذا الوفْدَ غلامٌ يافع لا تزيد سِنُّهُ على اثنتَي عشْرة سنة ، فانْزَعَجَ الخليفة من هذا الغلام الذي يتَقَدَّم هذا الوفْد فقال :

أيها الغُلام اِجْلِس أنت ولْيَتَقَدَّم من هو أكْبرُ منك سِناً ، فقال هذا الغُلام : أصْلَح الله الأمير ؛ المرْءُ بِأَصْغَرَيْهِ : قلبِهِ ولِسانِه ، فإذا وهب الله العبْدَ لِساناً لافِظاً ، وقلْباً حافِظاً ، فقد اسْتَحَقَّ الكلام ، ولو أنَّ الأمر كما تقول لَكانَ في الأمة من هو أحقُّ منك بِهذا المجْلِس ، فَدُهِشَ الخليفة .

درواس بن حبيب وهو ابن ست عشرة سنة دخل على هشام بن عبد الملِك فانْزَعَج الخليفة وقال لِحاجِبه ، ما شاء أحدٌ أنْ يدْخل عليَّ إلاّ دخل ، حتى الصِّبْيان ؟! فقال هذا الصبيُّ الناشىء : أيها الأمير إنَّ دُخولي عليك لم يُنْقِص من قدْرك شيئاً ولكِنَّهُ شرَّفني ، أصابَتْنا ثلاث سنين : سَنَةٌ أذابت الشَّحْم ، وسَنَةٌ أكلت اللحم ، وسَنَةٌ دقَّت العظم ، ومعكم فُضول مالٍ ، فإن كانت لكم فَتَصَدَّقوا بِها علينا فإنَّ الله يجْزي المُتَصَدِّقين وإن كانت لنا فَعلام تحبسوها عنا ونحن أوْلى بِها ؟ وإنْ كانت لله فَنَحن عِبادُهُ ، فقال هشام بن عبد الملِك : والله ما ترك هذا الغلام لنا في واحِدَةٍ عُذْراً .

لِذلك قالوا : جمال الرجل فصاحَتُهُ ، وسيِّدنا عمر بن الخطاب عِمْلاق الإسلام والخليفة العظيم كهْف العدالة ، كان إذا مشى في الطريق من شِدَّة هَيْبَتِهِ تَفَرَّق الناس أمامهُ ، بل إنَّ الصِّغار إذا رأوْهُ تفرَّقوا ودخلوا إلى بُيوتِهم ، وذات مرّةً مشى في سكك المدينة ورأى غِلْماناً صِغاراً ، فلما رأوْهُ هربوا إلا واحِداً منهم بقِيَ رابِط الجأْش ، فلما وصَل إليه قال : يا غُلام لِمَ لم تهْرب مع من هرَبَ ؟ فقال : يا أميرالمؤمنين لسْتَ ظالِماً فأخْشى ظُلْمَك ، ولسْتُ مذْنِباً فأخْشى عِقابَك ، والطريق يَسَعُني ويَسَعُك ، فأعجب الخليفة بجرأته وحسن كلامه ، ثم إنّ الله عز وجل يقول :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ١ـ٥] .

قال تعالى : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ ولِكرامةِ الإنسان على الله علَّمَهُ البيان (اللغة) ، والشيء الذي يأْلَفُهُ الناس لا يثير اهتمامهم لألفته لديهم ، ولا يوقظ فيهم حسَّ تعظيم الله الذي تكرم به عليهم . فأنت باللُّغة تتَّصِل مع كلِّ الناس ، فأنت صباحاً تسْتمع لِنَشْرة الأخبار وكلّ ما يجري في العالم فيتجمّع لدَيْك الكثير من المعلومات ، فمثلاً : هُنا سَقَطت طائرة وهنا مذْبحة وهنا قامت حرْبٌ أهْلِيَّة وهنا خُطِفت طائِرة وهنا عُقِد مؤتمر وهنا . . . أَلَيْسَ كذلك ؟ بِهذه الأُذُن وبِهذا النُّطْق بِدقائِق معْدودات أحطت بالمعلومات كغيرك وفي بلاد متعددة ، فاللغة أداة اتِّصال بين أفْراد النوْع ، ويُمْكن أنْ تُعَبِّر عن مشاعِرك وعن أفْكارك باللُّغة قال تعالى :

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۚ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام : ٩١] .

لا زِلْنا في مادّة عَلِمَ والاسم هو العالِم ، قال تعالى :

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٩] .

وقال تعالى :

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [البقرة : ٣١] .

فهذه كُلُّها أفْعال العِلم التي وردت في القرآن الكريم ، وسيِّدُنا

موسى لما التقى بالعبد الصالح استأذنه في مصاحبته ليتعلم منه على الرغم من نبوته وفضله ، قال تعالى :

﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [الكهف : ٦٦] .

وقال تعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

ومن الجدير أن أذكر هذه الفِكرة : وهو أنَّ الله سبْحانه وتعالى له أسْماء كثيرة فَمِن أسْمائِه العليم وعلاَّم الغيوب ، ومن أَسْمائِه العالم ، ولِكرامَة الإنسان على الله أعْطاهُ قُوَّةً إدْراكِيَّة يُصْبِح بِها عالِماً ، ولقد بلغت كُشوفات الإنسان العلمية حدًّا يفوق الخيال .

فأنْشتايْن هذا العالِم الفيزْيائي الذي اكْتَشَفَ ما يُسَمى بالنظريَّة النِّسْبِيَة ، وهي أنَّ الخطوط في الفراغ ليْسَت مُسْتقيمة لكِنَّها مُنْحَنِية ، وأنَّ كلَّ جسم يسير بِسُرْعة الضوء يُصْبِحُ ضوءاً ، والضوء كُتْلَتُهُ صِفر وحجْمُه لا نِهائي ، فأيُّ جِسْمٍ سار بِسُرعة الضوء صار ضوْءاً ، بل إنَّهُ إنْ سبَق الضوء تراجع الزمن ؛ إن سار الجِسم بِسُرعة الضوءِ صار ضَوْءاً وتوقَّفَ الزمن ، فإن قصّر عن الضَّوْء تراخى الزمن ، فَلو أمْكَنَك أنْ تنْطَلِق من مَوْقع معركة اليرْموك مثلاً وأنْ تصْعَدَ إلى الفضاء الخارِجي بِسُرْعَةٍ أعْلى من سُرْعة الضَّوء بعد حين ترى المعْركة وهي تقع ، لأنَّها حينما وقَعَت صدر عنها مَوْجات ضَوْئِيَّة إلى الفضاء الخارِجي قبل ألف وأربعِمئة عام تقريباً ، فلو أنت سبَقْتَ الضوْء لرَأَيْت هذه المعْركة كما هي وكأنَّها تقع الآن أمامك ، ولو سِرْتَ مع هذه المعركة لصارَت هذه المعركة أبَدِيَّةً وتوَقَّف الزمن ، ولو قصَّرْت عنها

لكانت رِحْلةٌ في الفضاء ساعة كأَلْفِ سنَةٍ على الأرض ، وهو بعض معاني قوْلِهِ تعالى :

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج : ٤٧] .

فإذا ركِبْتَ مرْكَبَةً فضائِيَّةً وسِرتَ بِسُرْعَةٍ أَقَلّ من الضوء قليلاً عندئذ تساوي الساعة في الفضاء الخارجي مئة عام في الأرض ، فالله عز وجل سمَح لِهذا الإنسان أنْ يعْلم ، وإنَّ الله عالِمٌ يُحِبُّ العالِم ورُتْبَةُ العِلْم أعْلى الرُّتَب ، فَلِذلك حينما يُغْفِل الإنسان قيمة العِلم في حياتِهِ أو حين لا يعْتني بِإدْراكِهِ ولا يعْتَني بِالعِلْم ولا يطْلُبُهُ يَهْبِط عن مُسْتوى إنْسانِيَّتِهِ إلى مُسْتوى لا يليق بِه ، والشيء الدقيق أنَّ :

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٧٦] .

يُرْوى قبل ستِّين عاماً فيما أذْكر أنَّ أحد شيوخ الأزهر قَدِم إلى الشام ، وشَيْخ الأزهر في مِصْر يُساوي مَرْتَبَةً علمية عالية ، وله أيضاً مرتبة إدارية مرموقة في مستوى رئيس وزارة ، فَجَلَسَ في مجلس الشيخ بدْر الدين الحسني العالم المشهور بدمشق ، وكان يَمْلأ هذا الكرسي لأنّ مرْتَبَتَهُ العلمية العالية ، ومرتبته الإدارية تسمحان له بذلك ، فلما سَمِع عِلْم الشيخ بدْر الدين غَيَّر من جَلْسَتِهِ ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ .

وأحْياناً يكون الإنسان في مجلس لا يسْتطيع أحدٌ أنْ يرُدّ عليه فَيَتَكَلَّم بما يشاء ، فإذا اكْتَشَفَ أنّ في المجْلِس من هو أعْلم منه يسْكُت ولسان حاله يقول : سكَتُّ إجْلالاً لِعِلْمِك ، والإنسان من حِكْمَتِهِ البالِغة أنَّه إنْ كان في المجْلِس من هو أَعْلم منه عليهِ أنْ يلْزم

الصمْت ، فإذا تكلَّم في حضْرة من هو أعلم منه فقد أساء الأدب ، ولكن الذي يعلم قد زانه أدب العلم ، فتراهُ يُصْغي للحديث بِسَمْعِهِ وبِقَلْبِهِ ولَعَلَّهُ أدْرى بِهِ .

من الآيات التي وردت فيها كلِمة العالِم قوله تعالى : ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ ، والنبي عليه الصلاة والسلام حدّثنا عما يقع في آخر الزمان وعن أحوال أهله فقال :

« إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعاً ، وَهَوًى مُتَّبَعاً ، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً ، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ ، وَدَعِ الْعَوَامَّ فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّاماً الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ » [رواه الترمذي] .

وإذا وُسِّدت الأمور لِغَيْر أهْلِها فانتَظِر الساعة ، وروي أن من علامات قيام الساعة أنْ يكون المطر قيْظاً ، والولَد غيْظاً ، ويفيض اللُّئام فيْضاً ، ويغيض الكِرام غيْضاً ، ومن علامات قيام الساعة أنْ يُصَدَّق الكاذِب ، ويُكَذَّب الصادِق ، وأنْ يؤْتَمَنَ الخائن ويُخَوَّن الأمين . أحاديث كثيرة نبَّأنا بِها النبي ﷺ قال :

« صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلاتٌ مَائِلاتٌ رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ ، لا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلا يَجِدْنَ رِيحَهَا ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا » [رواه مسلم] .

كيف أنَّها كاسِيَة عارِيَة ؟ إما أنَّ ثِيابَها تشِفُّ عما تحْتها فهي كاسِيَة فيما يبدو ، ولكِنها عارِيَة لما يشفُّ عمّا تحت ثيابها ، أو أنَّها ضَيِّقة

تصف حجْمَ أعْضائِها فهي كاسِيَة عارِيَة ومائِلةٌ مُميلَة ، فَالْعَنوهُنَّ لأنَّهن ملْعونات كما قال عليه الصلاة والسلام ؛ قال تعالى :

﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [الجن : ٢٦] .

عن عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ : أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ : « يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ ، لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلافِهِمِ الَّذِينَ مَضَوْا ، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَؤُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ وَلَوْلا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا ، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ ، وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ إِلا جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ » . [رواه ابن ماجه] .

أليس هذا الحديث من دلائل نُبُوَّة النبي عليه الصلاة والسلام ؟ فهذا الحديث من أرْوَع الأحاديث في دقة معانيه ووضوحها وما يشف عن غيب المستقبل ، وكأنَّ النبي عليه الصلاة والسلام معنا .

هذا الاسْم العالِم ورد كثيراً مع الغيب والشهادة فقد قال عز وجل : ﴿ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الأنعام : ١٣] .

عالِم الغيب والشهادة فكُلّ ما هو واقع هو من عالم الشهادة ، وكلُّ ما لم يقع هو من عالَم الغيب . فالله سبحانه وتعالى عالم الغيب وعالِم الشهادة ؛ عالِم الغيب والشهادة فَهُناكَ شيءٌ يغيب عنك لِبُعْد مكانِه ، وهناك شيءٌ يغيب عنك لِبُعْد زمانِهِ ، فأنت الآن في الشام لا تدْري

ما هو الآن كائِنٌ في حلب ، وفي الساحة الفُلانِيّة وفي المكان الفلاني لا تدْري ما يكون في حلب ؛ فهو من علم عالم الشهادة ولكنّه بعيدٌ عنك ، فالذي بيْنك وبيْنه مسافاتٌ طويلة هو من عالم الغيب غيب الحاضر ، فَهُناك غَيْب الماضي هو بُعْد زماني ، وغيْبُ المُسْتَقْبل بُعْد زماني ، ولكنّ غيْب الحاضِر بُعدٌ مكاني ، فالله سُبْحانه وتعالى عالِم الغيب والشهادة ، ومن هنا كان سيِّدنا رسول الله ﷺ إذا سافر دعا بِهذا الدعاء : « **اللهم! أنت الصاحب في السفر ، والخليفة في الأهل والمال** » ، هو معك لأنه عالِم الشهادة ، وهو مع أهْلِك لأنه عالم الغيب ، فإذا دعا الإنسان بِهذا الدعاء قبل أنْ يُسافر يُلْقي الله في قلْبِهِ الطُّمأنينة والسكينة ، لأنّ الله تعالى كما يقول :

﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف : ٦٤] .

دخل مسلمة بن عبد الملك على عمر بن عبد العزيز في المرضة التي مات فيها فقال له ياأمير المؤمنين! إنك فطمت أفواه ولدك عن هذا المال وتركتهم عالةً ولا بد من شيء يصلحهم فلو أوصيت بهم إلي أو إلى نظرائك من أهل بيتك لكفيتك مئونتهم إن شاء الله ، فقال عمر : أجلسوني فأجلسوه ، فقال : الحمد لله ، أبالله تخوفني يا مسلمة ؟ أما ما ذكرت من أني فطمت أفواه ولدي عن هذا المال وتركتهم عالة فإني لم أمنعهم حقاً هو لهم ولم أعطهم حقاً هو لغيرهم ، وأما ما سألت من الوصاة إليك أو إلى نظرائك من أهل بيتي فإن وصيتي بهم إلى الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ، وإنما بنو عمر أحد رجلين : رجل اتقى الله فجعل الله من أمره يسراً ورزقه من حيث لا يحتسب ، ورجل غيَّر وفجر فلا يكون عمر أول من أعانه على ارتكابه ، ادعوا لي بني فدعوهم ، وهو يومئذ اثنا عشر

غلاماً فجعل يصعد بصره فيهم ويصوبه حتى اغرورقت عيناه بالدمع ، ثم قال : بنفسي فتية تركتهم ولا مال لهم ، يا بني! إني قد تركتكم من الله بخير إنكم لا تمرون على مسلم ولا معاهد إلا ولكم عليه حق واجب إن شاء الله ، يا بني! ميلت رأيي بين أن تفتقروا في الدنيا وبين أن يدخل أبوكم النار فكان أن تفتقروا إلى آخر الأبد خيراً من دخول أبيكم يوماً واحداً في النار قوموا يا بني عصمكم الله ورزقكم ، قالوا : فما احتاج أحد من أولاد عمر ولا افتقر .

وذكر أن أبا جعفر المنصور قال لعمرو بن عبيد عظني ، قال : بما رأيتُ ، أو بما سمعتُ ؟ فقال : بل بما رأيتَ ، فقال : توفي عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ وخلف أحد عشر ابناً ، وبلغت قيمة تركته سبعة عشر ديناراً ، فكفن بخمسة دنانير واشترى له موضع قبره بدينارين وأصاب كل واحد من أولاده ثمانية عشر قيراطاً ، ومات هشام بن عبد الملك وخلف أحد عشر ابناً فحصل لكل واحدٍ من ورثته ممّا خلفه عشرة آلاف دينار ، فرأيت رجلاً من أولاد عمر بن عبد العزيز قد حمل على مائة فرس في سبيل الله ، ورأيت رجلاً من أولاد هشام يسأل الناس .

بِإمْكانِك أنْ تُسافِر وأنت مُطْمَئِنٌ إلى سلامة أهْلِك لأنَّك دعَوْت الله وهو الذي يعْلم الغَيْب والشهادة فيحْفَظهم في غَيْبَتِك ، قال تعالى :

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : ١٠٥] .

وقال تعالى : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [المائدة : ١١٦] .

أحد مصادر قوة المؤمن أنّ الله تعالى عالِم الغيب والشهادة ، فقد يُلْهِمُهُ أنْ يأْخذ الاحْتِياط من عدُوِّهِ لأنَّ الله يعْلم الغيب والشهادة ؛ يعْلم الشهادة التي يشْهَدُها المؤمن ويعْلم ما يغيب عن المؤمن ، مثلاً لو كان هناك فريقانِ ، وكلاهما يكيد للآخر ، وكلا أعضاء الفريقين لا يعلم ما يفْعل خصْمُهُ ، فإذا كان أحد الفريقَيْن مع الله ، فالله يعْلم ما يَفْعل أعْضاء الفريق الآخر ، فَيُلْهِم الأوّل أنْ يفْعل كذا وكذا لأنه عالم بتدبير خصمهم ، قال تعالى : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ [الحج : ٣٨] .

فإذا كنت مع الله فمن يسْتطيع أن يكون عليْك ؟ وإذا كان الله معك فَمَن عليْك ؟ لأن الله مع خصْمِك يَعْلَمُ سِرَّهُ ونَجْواه ويُلْهِمُك الصواب في كلِّ مَوْقِف وتأخذ لنفسك الحيطة وَتَحذر ، قال تعالى :

﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾ [الرعد : ٩] .

الله جلّ جلاله هو العَلِيّ الأعلى الوهاب ، قال تعالى :

﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون : ٩٢] .

وقال تعالى :

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [سبا : ٢] .

فإذا تَوَلى إنسانٌ أمْراً وغاب عن عِلْمِهِ فيجري على غير بصيرة ، فيُقال عنه : جاهِل وسَيِّئ عملَهُ وضعيف الضبط وما اسْتطاع أنْ يضْبِط أمورهُ ، أما الله سبحانه فَكُلُّ شيءٍ يدْخل إلى الأرض يعْلَمُهُ وكلُّ شيءٍ يخْرُجُ منها يعْلَمُهُ ولا تخفى عليه خافية ، وقال تعالى :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبا : ٣] .

وقال تعالى :

﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] .

تصَوَّر أنَّكَ تمْشي في بُسْتان أيام الخريف ؛ كم من ورقة تسْقط في الخريف ؟ إذا كان أرْبَعَةُ أخْماسِ الأشْجار أشْجارٌ مُتَساقِطة الأوْراق ، فكَم ورقَةً تسْقُط في الخريف ؟ عددها كبير جداً ، والصيغَةُ صيغة قصْرٍ . قال تعالى : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ فإذا كان يعْلم سُقوط كل ورقة ؛ ألا يعْلم ما يدور في ذِهْنِك ؟ وما تنْوي أنْ تفْعَل ؟ .

لِذلك . . . من الآيات التي تلْفِت النظر أنَّ الحجّ كلّهُ من أجْل أنْ تعْلم أنّ الله يعْلم أن المؤمنين سيملؤون جنبات هذا المكان المقدس ، ويكونون مصدر رزق لسكانه الذين سكنوه وهو غير ذي زرع ، والكَون كلُّهُ من أجْل أنْ تعْلم أنَّ الله يعْلم ، قال تعالى :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق : ١٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبا : ٣] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [فاطر : ٣٨] .

إن الله سبحانه يعلم ما تنطوي عليه النفْسُ البشريّة ، وما تُكِنُّ وما تُسِرّ ، وما يَخْفى عليها وما تَحْلم به وما يدْفَعُها وبواعِثُها : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ . وهو سبحانه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

وفي الزمر قال تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَـٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ .

وفي سورة الحشر قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الحشر : ٢٢] .

وفي سورة الجمعة ، قال تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجمعة : ٨] .

وفي سورة التغابن ، قال تعالى :

﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [التغابن : ١٨] .

وفي سورة الجنّ ، قال تعالى :

﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [الجن : ٢٦] .

وقال تعالى :

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَـٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥١] .

آياتٌ كثيرةٌ جداً وردَتْ فيها كلِمة عالِم ، وهناك علاّم وعليم ؛ علام الغيوب ، سميع عليم ، ويَبْدو أنّ أكثر الآيات التي وردت فيها

كلِمة العالِم وهو اسْمٌ من أسْماء الله الحُسْنى ورَدَت مُقْتَرِنة بِعالِم الغيب والشهادة ، أيْ أنَّ الغيب ما غاب عنك ، والشهادة ما تشْهَدُهُ ، فإذا وكَّلْتَ أمْرك إلى الله فهُو يُدافِعُ عنك فيما تشْهَدُهُ وفيما هو غائِبٌ عنك .

أمّا مُلَخَّصُ هذا البحث أو التطبيق العملي له فهو كما يلي :

راقِبْ نفْسَك ؛ فلو طرق بابك إنْسان كريم له هَيْبَة ومكانة وعالِم ووَقور ، ودخل إلى البيت فكيْفَ سَتَتَصَرَّف ؟ سَتَتَصَرَّف تَصَرُّفاً حكيماً ؛ تَنْتقي أجْمل الألْفاظ وأنت ترحِّب به وتحادثه ، وتَرْتَدي أجْمل الثِّياب ، وتَجْلِس أمامهُ جلْسَةً مُؤَدّبة ، فإذا كنت تهابُ رجلاً من بني جِلْدَتِك له مكانةٌ في قوْمِهِ وتتأدَّبُ في مَجْلِسِه ، فَكَيْف إذا عِلِمْت أنْ الله يعْلم ؟ وكيْف إذا عِلِمْت أنّ الله علاّم الغيوب ؟ وكيف إذا عِلِمت أنّ الله لا يخْفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء ؟ وكيف إذا عِلِمت أنّ الله أقْرب إليك من حبْل الوريد ؟ وكيْفَ إذا عِلِمْتَ أنَّ الله يحولُ بين المرْء وقَلْبِهِ ؟ وكيف إذا عِلِمْت أنَّهُ يعْلم السِّر وأخفى ؟ وكيف إذا عِلِمْت أنَّ الله يعْلم ما كان وما يكون وما سَيَكون ويعْلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون .

لذلك يروى عنه عليه الصلاة والسلام : « **أفْضل الإيمان أنْ تعْلم أنّ الله معك حيثما كنت** » . وهذا يَحْفز المؤمن إلى أن يعرف قدر ربه فيَهَابُه ويستجدي رحمته وتوفيقه .

هل يُمْكِنك إذا كنت تركب مرْكَبَةً والإشارة حمْراء والشرْطي واقِف ، والضابِط موجود ، وشرطة الدراجات متربصون ؛ هل يُمكن أن تتجاوز الإشارة الحمراء ؟ لا . لأنك تعْلم أنَّك لن تنْجُوَ منهم

جميعاً ، فكيْف إذا علِمت أنّ الله معك دائِماً وأنَّك في قبْضَتِهِ ، ولن تسْتطيع أنْ تتفلَّت من عِقابِهِ أبداً .

فيجب أنْ تعْلم أنّ الله يعْلم علماً مطلقاً ، فإذا علِمْت أنّ الله يعْلم ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ، اسْتَقَمْتَ على أمْرِهِ ، وإنْ اسْتَقَمْتَ على أمْرِهِ ، سَعِدْتَ بِقُرْبِهِ في الدنيا والآخرة .

* * *